الترجمات العربية للروايات الفرنكوفونية "ما بعد الكولونيالية": رجوعٌ إلى الأصل أم رحلة ثانية؟
"صخرة طانيوس" لأمين معلوف– أنموذجا –

لينة ليلى عبد العزيز

جامعة باتنة 2، l.abdeaziz@univ-batna2.dzl

تاريخ الإيداع: 2018/12/27 **تاريخ المراجعة:** 2020/06/16 **تاريخ القبول:** 2020/06/16

ملخص

يعالج هذا المقال الإشكالية التي تطرحها ترجمة الروايات الفرنكوفونية ما بعد الكولونيالية إلى اللغة العربية، حيث إن الكتاب العرب يقحمون على اللغة الفرنسية عناصر ثقافية ولغوية خاصة بأصولهم. هذا ما يقودنا إلى التساؤل حول عملية الترجمة في هذا السياق: هل هي مجرد رحلة العودة إلى الأصل؟ أم أنها هجرة ثانية يقوم بها النص إلى اللغة العربية؟ إن الأمثلة التي انتقيناها من رواية "صخرة طانيوس" لأمين معلوف وضحت أن عملية ترجمة الرواية الفرنكوفونية إلى اللغة العربية تتم وفق مسارين: رحلة الرجوع إلى الأصل؛ وهجرة ثانية.

الكلمات المفاتيح: كتاب فرنكوفونيين، رواية فرنكوفونية، دراسات ما بعد كولونيالية، ترجمة، رجوع إلى أصل، هجرة.

The Arabic Translation of Postcolonial Francophone Novels: Repatriation or Second Migration
Case Study of "Le Rocher de Tanios" of Amin Maalouf

Abstract

The Francophone writers of Arabic origin introduce into the French language cultural elements which are specific to their cultures and mother tongues. This article aims to answer the following questions: Can we consider the translation into Arabic as a simple journey back to the origin? Or, is it considered as a second migration? The selected examples from the novel "Le Rocher de Tanios" by Amin Maalouf have shown that the translation into Arabic of this type of novel is a two-movement operation.

Keywords: Francophone writers, postcolonial studies, translation, immigration, return to original, francophone novel.

La traduction arabe du roman francophone «postcolonial»: rapatriement ou migration
Le Rocher de Tanios d 'Amin Maalouf

Résumé

Les écrivains francophones d'origine arabe introduisent dans la langue française des éléments culturels propres à leurs cultures et langues maternelles. Ce qui fait de la traduction vers la langue arabe un processus spécifique: Est-elle un simple retour vers l'origine (un rapatriement)? Ou une seconde migration? Les exemples choisis du roman «Le rocher de Tanios» d'Amin Maalouf ont démontré que la traduction des romans francophones vers la langue arabe est une opération qui se fait selon deux mouvements.

Mots-clés: Ecrivains francophones, études poscoloniales, roman francophone, théorie postcoloniale, traduction, rapatriement, migration.

المؤلف المرسل: لينة ليلى عبد العزيز، l.abdelaziz@univ-batna2.dz

مقدمـــة

إن اختيار الكتاب الفرنكوفونيين اللغة الفرنسية (لغة المستعمر) للكتابة اختيار يصاحبه الشك والتوتر وحتى الإحساس بالخيانة، فالكتابة بلغة المستعمر المستبد فيها نوع من الرضوخ للقوي وتخلٍّ ثانٍ عن لغة وهوية ثقافية سلبتا منه من قبل هذا المستعمر؛ يزودنا التاريخ الأدبي بأمثلة مفادها الاتهامات التي لحقت ببعض الكتاب الفرنكوفونيين بكونهم "عملاء فرنسا" وتجريدهم من الروح الوطنية، بل ودفع هذا النوع من النقاش كتابا عن التوقف عن الكتابة الأدبية. إلا أن الماضي "الكولونيالي" انجر عنه حاضر "ما بعد كولونيالي" يتسم بالهجنة والتنوع الثقافي واللغوي والتمازج، وهذا ما تتميز به الكتابات الأدبية الفرنكوفونية من وجهة نظر دراسات ما بعد الكولونيالية التي تعتبر الهجنة فضاءً بينيًّا تلتقي من خلاله الثقافات واللغات فتتحاور وتثري بعضها بعضا بعيدا عن الثنائية مهيمِن/ مهيمن عليه. هذا ما يجسده الكتاب الفرنكوفونيون لفترة ما بعد الكولونيالية في رواياتهم، فاختيارهم للغة الفرنسية جاء عن وعي أن الكتابة بلغة الآخر، وإن كان المستعمر القديم، لا تعني الرضوخ له والتخلي عن اللغة والثقافة المحلية، على العكس تماما، فالكتابة هنا شكل من أشكال المقاومة ونوع من أنواع التحدي للنماذج التقليدية والتراتبية التي وضعتها القوات الكولونيالية، فمن خلال كتاباته يطمح الكاتب الفرنكوفوني لما بعد الكولونيالية إلى زعزعة قواعد الكتابة الغربية وخلق لغة "بينية" هجينة حتى يثبت وجود لغته وثقافته.

ينتمي الكاتب أمين معلوف إلى جيل كتاب "ما بعد الكولونيالية" الذين اختاروا التعبير والكتابة باللغة الفرنسية، فهم يعتبرون هذه الأخيرة عنصرا من العناصر التي تدخل في تكوين هوياتهم الثقافية ولا تستطيع أن تكون حائلا للتعبير عن عوالمهم الثقافية المحلية، هذا ما يجعلهم يستعملون لغة فرنسية خاصة بهم وبمجتمعاتهم حيث إنهم يعتمدون على أساليب واستراتيجيات يقحمون من خلالها على اللغة الفرنسية كلمات وعبارات وتراكيب خاصة بلغاتهم وثقافاتهم المحلية من خلال عملية يتم بمقتضاه ترجمة متخيله الثقافي في اللغة الفرنسية، هذا ما يجعلنا نتساءل حول طبيعة العملية الترجمية إلى اللغة العربية: هل هي مجرد عودة إلى الأصل تقوم بها الرواية الفرنكوفونية خلال الترجمة إلى اللغة العربية؟ أم أن الرواية الفرنكوفونية ستقوم بهجرة ثانية إلى اللغة العربية، بعد أن عرفت هجرة أولى جراء الكتابة الفرنكوفونية؟

أردنا في هذا المقال تقديم إجابات على هذه التساؤلات من خلال أمثلة انتقيناها من رواية "صخرة طانيوس" للكاتب أمين معلوف، لكن قبل تقديم الأمثلة وتحليلها ارتأينا أن نعود لأصول الرواية الفرنكوفونية التي تجد جذورها الأولى في الحركات الاستعمارية التي شهدها العالم ابتداء من القرن التاسع عشر، وهذا ما جعل الأدب الفرنكوفوني محل نقاشات انعكست على الدراسات المتعلقة به. إن استعمالنا لعبارة "ما بعد الكولونيالية"

فيما يخص الرواية الفرنكوفونية في هذه الدراسة جاءت حتى نبين أهمية "دراسات ما بعد الكولونيالية" لفهم حاضر هذه الآداب فهما موضوعيا؛ هذا إضافة إلى أن هذه الدراسات تلقي الضوء على مميزات الكتابة الفرنكوفونية المعاصرة من هجنة وتمازج بين اللغات والثقافات، وهي مميزات لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار من طرف المترجم. تحمل الرواية الفرنكوفونية علامات الهوية الثقافية الأصلية للكاتب تتجلى في الكلمات والسياقات الخطابية والحوارات والأحداث التي تدور حولها الرواية، من جهة. ومن جهة أخرى، فالرواية الفرنكوفونية تحمل غيرية تجسدها اللغة الفرنسية وهي لغة أجنبية بالنسبة للعوالم والمتخيلات والشخصيات التي نجدها في الرواية. هذا ما يجعل هذه الأخيرة، وإن كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، تحمل شفرات لا يستطيع فكها وفهمها سوى القارئ المزدوج اللغة والثقافة، فالقارئ الفرنسي (أحادي اللغة) سيجد نفسه ضائعا في لغته، جراء مزجها بالعوالم الثقافية

واللغة المحلية للكاتب الفرنكوفوني؛ إذن تطرح الرواية الفرنكوفونية تحديات كبرى للمترجم العربي الذي قد تجعله الألفة التي يحسها حيال النص الفرنكوفوني ينطلق في عملية الترجمة دون فهم صحيح وعميق للإستراتيجية الروائية للكاتب الفرنكوفوني التي تتموقع بين لغتين وثقافتين.

1- الرواية الفرنكوفونية "ما بعد الكولونيالية":

تعد الرواية من أحدث الأجناس الأدبية، فعدم احترامها للقواعد الصارمة للكتابة الشعرية المتعارف عليها منذ العصور القديمة جعلها تعد، ولمدة عصور، ضمن الأجناس الأدبية الثانوية. إلا أن التطور الفكري والتحرر الذي شهدته المجتمعات الأوروبية أواخر القرن الثامن عشر، لعبا دورا كبيرا لصالح بروز الرواية واحتلالها الصدارة، حيث إنها تحظى اليوم برواج كبير وشعبية لدى القراء. إن الرواية قصة يحاكي من خلالها الأديب الواقع الذي يعيشه، حيث إنه يستوحي منه شخصيات وأحداثا ليعالج مواضيع مختلفة تتعلق بالحياة البشرية، وهو شأن الرواية الفرنكوفونية كغيرها من الروايات الأخرى. إلا أن ما يميزها (الرواية الفرنكوفونية) هو أن أدباء هذا الجنس الأدبي يستعملون لغة فرنسية خاصة بهم وبثقافاتهم: فهي ليست اللغة التي يتحدث بها الكونت دي مونتي كريستو ولا السيد ديفال ولا السيدة بوفاري، بل اللغة التي يتحدث بها عمر ورشيد ومريم ولميا وغيرهم من الشخصيات التي تنتمي لعوالم ثقافية مختلفة عن الثقافة الفرنسية، وهذا ما يمنح الرواية الفرنكوفونية "هجنة" و"تنوعا لغويا وثقافيا" يدخلون ضمن أهم مميزاتها، وهذا ما تقره أغلب دراسات ما بعد الكولونيالية التي تسعى للدراسة والتمعن في الكتابات الأدبية التي خلفتها الظروف التاريخية. فالهجنة التي تميز الروايات الفرنكوفونية ما بعد الكولونيالية تنجم عن إستراتيجية يستعملها الكاتب الفرنكوفوني حتى يقاوم ويتحدى "الآخر" "المستعمِر"، وذلك باستعمال لغة هذا الأخير ومنحِها ألوانا ثقافية ولغوية غريبة عنها، وتكون بذلك الهجنة في دراسات ما بعد الكولونيالية فضاءً جديدا تتحاور من خلاله اللغات والثقافات. تجدر الإشارة أن دراسات ما بعد الكولونيالية تمنح أدوات نقدية من شأنها إخراج الآداب الفرنكوفونية، بكل أنواعها وأجناسها، من دائرة الجدل والنقاشات التي ارتبطت بها منذ بداياتها خلال الحقبة الاستعمارية، وهذا ما سنوضحه فيما يلي.

1- 1- الأصول التاريخية للأدب الفرنكوفوني (الرواية):

أدب فرنكوفوني، آداب فرنكوفونية، آداب الجنوب، آداب الهامش وغيرها من التسميات التي نطلقها على كل ما يكتبه أدباء ليسوا فرنسيين أصليين[1] «pas souche» على حد تعبير الكاتب الفرنكوفوني الطاهر بن جلون، إلا أن العبارة الأكثر استعمالا وشيوعا التي تعتمدها الهيئات الأكاديمية هي: آداب فرنكوفونية (بصيغة الجمع) وهذا لتعدد المناطق الجغرافية التي ينحدر منها الأدباء الفرنكوفونيون. تفرق "باريس" بين الأدب الفرنسي والأدب الفرنكوفوني مع أن كليهما يعتمد على نفس اللغة في الكتابة، وهذا ما يجعل عبارة "أدب فرنكوفوني" محل نقاش وتساؤلات: ما هي المعايير التي يتم من خلالها التمييز بين الأدب الفرنسي "الأصلي" والأدب الفرنكوفوني؟ يمكن للتاريخ أن يزودنا بإجابات ستساعدنا على فهم هذا التمييز الذي دأبت المؤسسات الأكاديمية، منذ السبعينيات، على اعتماده بين الأدب الفرنسي والآداب الفرنكوفونية، حيث إننا إذا ما ألقينا نظرة على قائمة الكتاب الفرنكوفونيين فإننا سنجد معظمهم، هذا إن لم نقل كلهم، ينتمون إلى مستعمرات فرنسا القديمة، فالتوسع الاستعماري الفرنسي أدى إلى انتشار اللغة الفرنسية في أوساط المجتمعات المستعمرة. كان الهدف من السياسة الإدماجية الفرنسية استبعاد كل الخصوصيات الثقافية واللغوية للشعوب المستعمرة واستبدالها باللغة الفرنسية، بحجة أن هذه الأخيرة تجسد قيم الإنسانية والحرية، لذا كان لا بد من بناء المدارس لتلقين الحضارة لهذه الشعوب

التي اعتبرت على أنها "بربرية" و"متوحشة" و"غير متحضرة"، ولكن ما علاقة كل هذه الحقائق التاريخية ببروز ما سيسمى، خلال القرن العشرين، بالأدب الفرنكوفوني؟ إن العلاقة واضحة وجلية: نجاح فرنسا في تكريس مشروعها المتمثل في فرض اللغة الفرنسية في جل البلدان التي استعمرتها أدى إلى بروز جيل من " أبناء الأهالي" تلقى تعليما باللغة الفرنسية وتطلع بذلك على القيم الإنسانية التي جسدها كبار المؤلفين والفلاسفة الفرنسيين خلال عصر التنوير، هذا ما أدى إلى ظهور عدد من الكتاب من أصول غير فرنسية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، استعملوا اللغة الفرنسية والكتابة الأدبية للتعبير عن رفضهم للاستعمار وتجسيد ثقافاتهم وهوياتهم المحلية التي طمسها الاستعمار، وبدأتْ منذ ذلك الحين كتابات أدبية فرنسية لكتاب غير فرنسيين في البروز. تجدر الإشارة أن العديد من باحثي تلك الحقبة وحتى كتابها اعتقدوا أن الكتابة باللغة الفرنسية في البلدان المستعمرة سرعان ما ستنتهي بانتهاء الاستعمار، كالكاتب ألبير ممي الذي كتب في كتابه "صورة المستعمِر" أن الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية محكوم عليه بالموت وهو فتي".

«J'ai écrit dans Portrait du colonisé que la littérature maghrébine d'expression française était probablement condamné à mourir jeune»(2).

إلا أنه وعكس هذه التوقعات لم تختف ظاهرة الكتابة باللغة الفرنسية، بل انتشرت في البلدان التي استعمرتها فرنسا وازداد عدد الأدباء الذين يكتبون باللغة الفرنسية، وبدأت تسميات ك" أدب جزائري أو تونسي أو لبناني مكتوب باللغة الفرنسية" تطلق على مجموع هذه الإنتاجات الأدبية التي ازداد عددها خلال السبعينيات، وساهم تأسيس " المنظمة العالمية للفرنكوفونية" سنة 1970 في انتشار تسمية آداب فرنكوفونية للدلالة على مجموع الآداب التي يكتبها أدباء غير فرنسيين أصليين، تسمية تعكس نوعا من التراتبية بين الأدب الفرنسي السامي الذي يشغل المرتبة الأولى والأدب الفرنكوفوني الأدنى مكانة يشغل المرتبة الثانية.

جعل الفصل بين الأدب الفرنسي والأدب الفرنكوفوني الدراسات الأدبية الفرنكوفونية يشوبها نوع من الشك في مصداقية المعايير التي يتم من خلالها تصنيف الأدباء الفرنسيين والأدباء الفرنكوفونيين، وبقيت بذلك كل الدراسات حبيسة المركزية الفرنسية التي يحاول العديد من الباحثين التخلص منها من خلال إقحام دراسات ما بعد الكولونيالية على المجال الأدبي الفرنكوفوني مثل الباحث الفرنسي جون مارك مورا.

1- 2- دراسات ما بعد الكولونيالية والأدب الفرنكوفوني:

ظهرت دراسات ما بعد الكولونيالية خلال السبعينيات في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، ويعد كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد الذي صدر سنة 1978 من أمهات كتب هذا الحقل المعرفي. وإن كانت كلمة "ما بعد الكولونيالية" تقبل في اللغة العربية كتابة واحدة، ففي اللغة الفرنسية أو الانجليزية تقبل كتابتين:

Post-coloniale وPostcoloniale حيث تستعمل الكتابة الأولى للدلالة على الفترة التي تلت الحقبة الاستعمارية، أما الكتابة الثانية فتطلق على النظرية ومجمل الدراسات النقدية التي تطورت خلال فترة السبعينيات، والتي تسعى لدراسة الأشكال الأدبية والظواهر الاجتماعية على ضوء الإشكالية الاستعمارية وتداعياتها على جل المجتمعات، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تطمح هذه الدراسات لتخليص الدراسات الأكاديمية، ومنها الأدبية، من النظرة المركزية الأوروبية التي هيمنت عليها لسنوات طويلة.

إذن، ظهر بعد الفترة الاستعمارية جيل من المفكرين، معظمهم من بلدان كانت مستعمَرة، أراد أن يصحح ويعدل بعض الأحكام المسبقة التي أصدرها الغرب في حق الشعوب التي استعمرها، بتعبير آخر: حاول هؤلاء

الباحثون إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر "بلدان العالم الثالث" "بلدان الجنوب" بعدما هيمن الأوروبيون على كل الدراسات المتعلقة بثقافاتهم وهوياتهم وآدابهم. الجدير بالذكر أن دراسات ما بعد الكولونيالية ظهرت أولا في البلدان الأنجلوسكسونية، وإقحامها في المجال الأكاديمي الفرنسي خاصة الدراسات المتعلقة بالآداب الفرنكوفونية، حديث العهد، فالنظرة المركزية (أي باريس وأدبها المركز) لهذه الآداب (آداب الهامش) جعلت الدراسات الفرنكوفونية، التي ركزت على العامل اللساني (أي اللغة الفرنسية) كقاسم مشترك بين كتاب ينتمون لثقافات وبيئات مختلفة، تأبى الاهتمام بالتمازج الذي تعرفه المجتمعات البشرية، ويرى الباحث مورا أن دراسات ما بعد الكولونيالية من شأنها منح مجال الدراسات الأدبية الفرنكوفونية أدوات نقدية جديدة يمكن أن تساعد في تطويرها، فهذه الدراسات يمكن أن تمنح قراءات جديدة لإبداعات الأدباء الفرنكوفونيين الذين بقيت أعمالهم تخضع للمركزية "الباريسية" من خلال الاهتمام الفعلي والجدي بالسياق والظروف الذي أنتجت فيه، بدلا من اعتبارها امتداداً للأدب الفرنسي:

«Les études postcoloniales s'efforcent ainsi de rendre justice aux conditions de production et aux contextes dans lesquels s'ancrent ces littératures. Elles évitent de les traiter comme de simples extensions de lettres européennes qui n'auraient pas à être situées pour être comprises»(3).

تعيد دراسات ما بعد الكولونيالية النظر في مختلف العلاقات التي تربط الثنائيات مستعمَر/مستعمِر، شمال/جنوب، مركز/ هامش...الخ من الثنائيات التي هيمنت عليها المركزية الأوروبية، من خلال إعادة بناء تاريخ أدبي وذلك بالتعمق في فهم نتائج الفترة الاستعمارية على أدباء ما بعد الكولونيالية، فهؤلاء تربطهم علاقة مختلفة باللغة الفرنسية، علاقة تتسم بالهدوء والاتزان فهم يكتبون بها مخيرون لا مجبرون، عكس أسلافهم من أدباء الحقبة الاستعمارية الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على الاعتماد على لغة المستعمر حتى يسمعوا أصواتهم، فاللغة الفرنسية كانت بالنسبة لهم وسيلة للمطالبة بالحرية، وهذا ما جعل الكتابة باللغة الفرنسية مجالا للتمرد على الثقافة الاستعمارية أي مجالا لصراع الثقافات المحلية مع الثقافة الاستعمارية الفرنسية.

إن اللغة الفرنسية، وإن كانت من مخلفات الاستعمار في الكثير من البلدان الفرنكوفونية، فقد أصبحت في هذه البلدان اليوم لغة حاضرة في واقعها، بل منحها هؤلاء المستعملون، خاصة الكتاب باختلافاتهم الثقافية ألوانا متنوعة، لهذا "فإن دراسات ما بعد الكولونيالية تعتبر اللغة الفرنسية في صيغة الجمع مجردة من أي مركز جلي" على حد تعبير مورا:

«Les études postcoloniales conçoivent plutôt le français comme une langue au pluriel, dépourvu de centre évident»(4).

انتقلت اللغة الفرنسية من حالتها كلغة مفروضة خلال الحقبة الاستعمارية إلى لغة مختارة خلال حقبة ما بعد الكولونيالية، وابتداء من السبعينيات أصبح الكتاب الفرنكوفونيون الذين اختاروا الإبداع في هذه اللغة ينتجون روايات استحوذوا فيها على اللغة الفرنسية، بعيدا عن هاجس الاحترام الذي قارب العبودية لها، من خلال إقحام لغاتهم وثقافاتهم المحلية في اللغة الفرنسية التي أصبحت تتحاور مع لغات مختلفة وتعبر عن ثقافات بعيدة كل البعد عن الثقافة الفرنسية، تكون بذلك الروايات الفرنكوفونية ل "ما بعد الكولونيالية" روايات تحمل هجنة وتنوعا لغويا يميزاتها عن غيرها من الروايات الأخرى، وهي مميزات لا بد أن يأخذها المترجم بعين الاعتبار خلال ترجمته.

2- ترجمة الرواية الفرنكوفونية "ما بعد الكولونيالية" إلى اللغة العربية:

إن الكتاب الفرنكوفونيين لفترة"ما بعد الكولونيالية" يكتبون باللغة الفرنسية مخيرين لا مجبرين، حيث إنهم على وعي بأن الكتابة بلغة "الآخر" لا تعني الرضوخ له وتخليا عن اللغة والثقافة المحلية، بل على العكس، فهي شكل من أشكال المقاومة، ونوع من أنواع التحدي للنماذج التقليدية والتراتبية التي وضعتها القوات الكولونيالية، فمن خلال كتاباته يطمح الكاتب الفرنكوفوني ما بعد الكولونيالي إلى زعزعة قواعد الكتابة الغربية وخلق لغة بينية هجينة حتى يثبت وجوده ووجود لغته وثقافته. تتميز الرواية الفرنكوفونية بكتابة تتموضع بين لغتين وثقافتين: لغة محلية، اللغة الأم للكاتب، وهي اللغة العربية فيما يخص الكاتب أمين معلوف، ولغة ثانية اللغة الفرنسية وهي اللغة التي تتجسد من خلالها الكتابة والإبداع الأدبيان، أي اللغة السطحية التي يكتشف من خلالها القارئ النص. كل هذا يقودنا للقول إن الكاتب الفرنكوفوني لما بعد الكولونيالية يقع في "فضاء ما بين "in between" «l'entre deux» وهذا ما يجعل رواياته تتسم بالهجنة التي تعرف على أنها عملية يتم من خلالها إنتاج نماذج ثقافية مختلطة ومتنوعة في ظل التحاور واحترام الغيرية بعيدا عن الثنائية مهيمِن/مهيمَن عليه.

تتجلى الهجنة في الرواية الفرنكوفونية من خلال إقحام الكاتب كلماتٍ وألفاظًا وعباراتٍ تنتمي للغته المحلية أو خاصة بثقافته مباشرة في نصه المكتوب بالفرنسية، أو ترجمة بعض التعابير من أمثال وحكم خاصة بثقافته ولغته المحلية، أو محاكاة التركيبة النحوية للغته الأم، وتكون الرواية الفرنكوفونية بذلك عبارة عن نسيج متناسق تتزاوج وتتحاور من خلاله اللغة الفرنسية مع لغات وثقافات الكتاب الفرنكوفونيين، وتعرف هذه الظاهرة اللغوية الخاصة بالنصوص الهجينة ب «l'hétérolinguisme» وهي لفظة ظهرت في بحث قدمه قروتمان من جامعة مونتريال (كيبيك، كندا)، وتتكون اللفظة من الكلمة اليونانية «heteros» ومعناه "الآخر"، والكلمة اللاتينية «lingua» أي اللغة، والسابقة «heteros» استعملها الباحث هنا للتركيز على الاختلاف لا على التعدد كما يقول:

«Le préfixe «hétéro-lingue» indique bien que l'accent est mis non sur la pluralité; mais sur la différence.»[(5)]

وهذا ما جعلنا نترجم اللفظة إلى اللغة العربية بعبارة "الاختلاف اللغوي" لا "التعدد اللغوي": فالتعددية تحيلنا على تراتبية في اللغات، وكأن اللغة الفرنسية في النص الفرنكوفوني تشغل المركز، هذا إضافة إلى أن التعددية تجعلنا نفكر في أن الكتابة الفرنكوفونية عبارة عن تعاقب اللغات في النص الواحد؛ أما فكرة "الاختلاف اللغوي" فهي تمحي كل تراتبية بحيث إن اللغة الفرنسية هنا تتعايش مع لغات أخرى تأخذ منها وتثريها في الوقت نفسه، وبذلك يكون النص الفرنكوفوني متناغما ومتجانسا يعبر من خلاله الكاتب عن "أنا" ثقافية خاصة من خلال لغة "الآخر"، أي "مجالا ثالثا" تلتقي من خلاله الثقافات واللغات بعيدا عن كل تراتبية بين اللغة الفرنسية واللغات التي تتعايش معها في فضاء الرواية الفرنكوفونية.

يقحم الكاتب الفرنكوفوني على اللغة الفرنسية لغته وثقافته عبر عملية يتم بمقتضاها تجسيد سياقات وخطابات روائية خاصة بثقافته المحلية في اللغة الفرنسية، أي أن الكتاب الفرنكوفونيين كالمترجمين، وبحكم ازدواجيته اللغوية والثقافية، ينتقلون بين لغتين وثقافتين حتى يجسدوا كتابته، يكمن الفرق بين المترجم والكاتب الفرنكوفوني في أن الأول يترجم من لغة أ إلى لغة ب، أما الكاتب الفرنكوفوني فينطلق من مرجع ثقافي ومتخيل متعلق بثقافته الأم، وما التسمية التي يطلقها مورا على الكتاب الفرنكوفونيين [(6)]«passeurs de langue» إلا دليل على أن الكتابة الفرنكوفونية تنتج عن ترجمة الكاتب لثقافته ولغته المحلية في اللغة الفرنسية، وهذا ما يجعلنا نتساءل حول

طبيعة العملية الترجمية، إذا ما تعلق الأمر بترجمة الرواية إلى اللغة الأم للكاتب (اللغة العربية لأمين معلوف) في إطار دراستنا: أ هي مجرد عودة إلى الأصل، أم أنها عملية إبداعية يهجر من خلالها النص الأصلي إلى اللغة العربية؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلي من خلال أمثلة منتقاة من رواية "صخرة طانيوس".

2-1- الترجمة العربية: رجوع إلى الأصل[7]؟

يعد الكاتب أمين معلوف من الكتاب ما بعد الكولونياليين الذين جعلوا من الكتابة منبرا للدعوة للتحاور الثقافي من خلال روايات يحاكي خلال كتابتها اللغة العربية الفصحى ومختلف لهجاتها مشرقا ومغربا، ومعتمدا على الموروث الثقافي والتاريخي المتعلق بالمشرق والمغرب العربيين وما يميزهما من عادات وتقاليد حتى يبني عوالمه الروائية، هذا ما يجعل المترجم العربي أمام نصوص تحمل عناصر ثقافية يعرفها مما يسهل عمله، وتكون بذلك الترجمة رحلة ممتعة تجد الرواية في محطتها الأخيرة أصلها؛ إلا أن هذه العناصر الثقافية تجسدها لغة أجنبية (الفرنسية) أبدع الكاتب في استعمالها في حلتها الأدبية والأسلوبية، وهذا ما يجعلنا نتساءل حول الترجمة العربية أ هي مجرد رحلة العودة إلى الأصل؟ أم هجرة ثانية نحو اللغة العربية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه فيما يلي باعتمادنا على بعض الأمثلة المنتقاة من رواية «Le rocher de Tanios»[8] للكاتب أمين معلوف وترجمتها للغة العربية (صخرة طانيوس) للمترجمة نهلة بيضون.

تعتبر الترجمة ميدانا تلتقي وتتلاقح فيه اللغات والثقافات والآداب المختلفة، وهي عملية انجرت عن الاختلاف فمن دونه لن تجد عملية الترجمة سببا للوجود، وهذا ما يجعل قضية "الآخر" و"الغيرية" في قلب الدراسات الترجمية وخاصة إذا تعلق الأمر بترجمة النصوص الأدبية، فهذه الأخيرة تضع المترجم أمام تحدي ترجمة "الغيرية" التي تتجسد من خلال العناصر الثقافية. تحث بعض الدراسات الترجمية على ضرورة البحث عن "الآخر" ومحاولة فهمه في غيريته، حيث إن هذه الطريقة في الترجمة كفيلة بإرساء التحاور الثقافي واللغوي بين مختلف المجتمعات؛ عكس الطريقة التي تدعو لمحو "الآخر" وتكييفه حسب المعايير الثقافية والجمالية للنظام الثقافي المستقبل، والتي ينجر عنها انغلاق على "الأنا الثقافية المركزية"، وهذا ما يتنافى والغاية السامية للترجمة والمتمثلة في التحاور الإيجابي. تجدر الإشارة أن انتهاج المترجم الطريقة الثانية يعكس أحيانا عجزا يتعلق بصعوبة ترجمة العناصر الثقافية، فهذه الأخيرة عادة ما تقاوم الترجمة وهذا راجع لخصوصياتها واستحالة تمريرها في اللغة الهدف، فترجمة العناصر الثقافية هي حجرة عثرة بالنسبة للمترجم في أغلب الأحيان.

إن الترجمة عملية يلتقي فيها "الآخر" مع "الأنا" وهو لقاء قد يكون عنيفا وذلك بالاستيلاء على الآخر وجعله يذوب في الثقافة المحلية؛ وقد يكون هذا اللقاء وديا حميميا يستقبل من خلاله "الأنا" "الآخر" بحفاوة متقبلا اختلافه متفهما له ومتفاعلا معه. هذا يجعل كل مترجم بصدد ترجمة عمل أدبي على وعي أنه سيجتاز "امتحانا" أو "تجربة الأجنبي" «L'épreuve de l'étranger»[9] كما يسميها برمان، إلا أن ترجمة الروايات الفرنكوفونية للكتاب ذوي الأصول العربية عامة، وروايات أمين معلوف خاصة، إلى اللغة العربية تختلف عن "تجربة الأجنبي": فالعناصر الثقافية في نصوص معلوف ليست ب"الأجنبية" أو "الغريبة" بالنسبة للمترجم العربي الذي ينتمي لنفس مجتمع الكاتب، هذا ما يجعلنا نقول إن الترجمة في هذا السياق تصبح "تجربة المألوف"، وهي فكرة وجدناها أيضا عند الباحثة والمترجمة نهلة بيضون التي تصف عمل المترجم الذي يقوم بنقل عمل معلوف إلى العربية ب Le» raducteur à l'épreuve du familier»[10] أي أن المترجم لن يجد صعوبة في فهم المحتوى الثقافي والتلميحات التي تنبع عن المتخيل الثقافي الذي يتقاسمه مع الكاتب الفرنكوفوني. لا يعكس النص الفرنكوفوني

"غيرية أجنبية" بل "أنا ثقافية" مألوفة ومفهومة، ويتمثل عمل المترجم في هذه الحالة في إعادة غرس العناصر الثقافية في وسطها الأصلي مانحا إياها هويتها الثقافية ولغتها الأصلية بعد أن هاجرت بفعل الكتابة الفرنكوفونية إلى اللغة الفرنسية، وكأن الترجمة عبارة عن "رحلة الرجوع إلى الأصل"، وهذا ما نلمسه عند قراءة هذين المثالين اللذين انتقيناهما من رواية "صخرة طانيوس" التي تجري أحداثها في القرن التاسع عشر في الجبل اللبناني، حيث استعمل معلوف مستويات خطابية متنوعة تحاكي اللهجة اللبنانية مانحة بذلك النص صبغة ثقافية تخصها.

المثال الأول: ترجم الكاتب في اللغة الفرنسية بيتا شعريا ينتمي للموروث الشعبي اللبناني في اللغة الفرنسية، حيث نلاحظ أنه استعمل خطا ايطالياني لكتابة هذه الأبيات معقبا بعد ذلك أن هذه الأبيات ربما نظمها شاعر شعبي بمناسبة زواج "لميا" و"جريس"، ويقول:

«Entre la mariée et l'époux, il y a une différence d'âge

Elle est en son quinzième printemps, et lui en son trentième hiver.»[11].

جاءت ترجمة نهلة بيضون مكتوبة بحروف ثخينة، وعلى النحو التالي:

"**بين العروس والعريس، فرق سنين**

هي بالخمستعش، وهو بالتلاتين"[12]

نلاحظ أن المترجمة استعملت اللهجة اللبنانية لترجمة هذا البيت الشعري الشعبي، وهذا ما يتجلى في كتابة كلمتي "خمسة عشرة" ب "خمستعش"، و"ثلاثون" ب "تلاتين"، وتكون بذلك المترجمة قد منحت للبيت الشعري صيغته الأصلية والرسمية والشرعية، حيث كان باستطاعتها استعمال لغة عربية أكاديمية إلا أنها بهذه الطريقة استدركت ضياع الهجنة التي نلمسها في النص الأصلي.

المثال الثاني: يعتمد أمين معلوف على أصوات شخصيات روايته حتى يحدث تنوعا لغويا، فهذه الشخصيات يجعلها الكاتب تتكلم في مستوى لغوي خاص بها، وهذا ما نلمسه مثلا عندما يجعل الخوري يقول:

«Un pasteur anglais dans notre village! Comme dit le proverbe, **qui vit longtemps verra beaucoup de merveilles!** Il faudra que je vienne avec l'eau bénite pour purifier le château avant qu'il n'arrive d'autres malheurs.»[13]

إن المثل الذي استعمله معلوف في هذا المقطع يحيل القارئ العربي على مثل معروف في المجتمعات العربية، ففي المغرب العربي يقال: "عيش تشوف"، أما في المشرق "عيش كثير بتشوف كثير"، استعملت المترجمة هذا المثل في ترجمتها العربية مع تغيير في كتابة كلمة "كثير" باستبدال حرف "الثاء" ب "التاء" وهي صيغة اللهجة اللبنانية "عيش كتير بتشوف كتير"، وتكون بذلك المترجمة قد أعادت العبارة إلى أصلها وكان اختيارها لصيغة المثل في صيغته العربية الدارجة اللبنانية لا العربية الفصحى في محله، حيث إن ذلك جعل النص المترجم يعرف نوعا من الهجنة والتمازج جراء استعمال المستوى العامي للغة العربية ومزجه باللغة العربية الفصحى.

عملت المترجمة بيضون من خلال هذا الرجوع إلى الأصل على منح النص الفرنكوفوني هويته الأصلية التي فقدها جراء هجرته إلى لغة أجنبية. وتجدر الإشارة أن هذه الرحلة، وإن كانت ممتعة حيث لن يواجه المترجم الصعوبات المتعلقة بترجمة العناصر الثقافية الأجنبية، إلا أنها ليست بهذه السهولة، إذ على المترجم أن يحافظ على الجانب الإبداعي والجمالي للكاتب في اللغة الفرنسية التي ينعكس من خلالها الجانب الأدبي الخلاق للكاتب في هذه اللغة.

2-2- الترجمة العربية كهجرة ثانية:

إن الرواية الفرنكوفونية، وإن كان كاتبها يعتمد على المتخيل الثقافي المحلي وعلى لغته الأم في محاكاتها وإقحامها على اللغة الفرنسية، فهي تبقى رواية مكتوبة في نظام لساني أجنبي (اللغة الفرنسية)، أي أن قيمتها الأدبية والجمالية ستحددها القيم والمعايير المتعارف عليها في هذا النظام اللساني، ولهذا فإن المترجم ملزم بالمحافظة على الخصوصيات الأسلوبية لهذه اللغة وتمرير الجانب الإبداعي الخاص بالكاتب في اللغة الفرنسية، وهذا نلمسه عند قراءة هذا المقطع الذي جاء بطريقة شاعرية تحمل إيقاعا جماليا:

«Toi, Tanios, avec ton visage d'enfant et ta tête de six mille ans
Tu as traversé des rivières de sang et de boue, et tu es ressorti sans tache
Tu as trempé ton corps dans le corps d'une femme, et vous vous êtes quittés vierges
Aujourd'hui, ton destin est clos, ta vie enfin commence
Descends de ton rocher et plonge-toi dans la mer, que ta peau prenne au moins le goût du sel!»(14).

يحمل العنوان الذي أعطاه الكاتب لهذا المقطع «Coupable de pitié» شعرية على المترجم تمريرها في اللغة العربية، حيث إن الألفة التي يحس بها المترجم العربي حيال الرواية الفرنكوفونية قد تجعله مندفعا في عمله لدرجة تجعله ينسى أن الكاتب يكتب ويبدع في اللغة الفرنسية، فهذه الأخيرة هي التي منحت النص شكله اللغوي وهي اللغة التي كانت السبب في وجود العمل الأدبي ولهذه اللغة معاييرها الأسلوبية والجمالية الأدبية الخاصة التي تجسد فيها أسلوب الكاتب، لهذا يتعين على المترجم العربي وخلال رحلة الرجوع إلى الأصل التي يقوم بها المحتوى الثقافي أن يحرص على نقل الاختلاف الذي ينجر عن استعمال اللغة الفرنسية، وجاءت الترجمة كما يلي:

"أنت، طانيوس، بوجهك البريء، ورأسك الذي يعود لستة آلاف عام،
عبرت أنهارا من الدماء والوحول، وخرجت منها طاهرا
غمست جسدك في جسد امرأة، وتفارقتما بتولين
اليوم، اختتم مصيرك، وصار بوسع حياتك أن تبدأ
فانزل من صخرتك، وغص في البحر، لتحمل بشرتك على الأقل مذاق الملح"(15).

نلاحظ أن المترجمة انتهجت منهج الترجمة الحرفية حتى تحافظ على الشاعرية والغموض اللذين يميزان المقطع الأصلي، وهذا ما فعلته أيضا بالنسبة للعنوان: "مذنب بسبب الشفقة".

إن الألفة التي يحس بها المترجم حيال الرواية الفرنكوفونية لا يجب أن تجعله ينطلق في عملية الترجمة دون فهم كامل ودقيق للإستراتيجية الروائية التي يعتمد عليها الكاتب والتي تتحاور من خلالها اللغتان الفرنسية والعربية، وهذا حتى يتمكن من إنتاج ترجمة عربية تحافظ على خصائص الكتابة الفرنكوفونية كالهجنة والتمازج والتنوع الثقافي واللغوي، فرحلة الرجوع إلى الأصل ليست فقط إعادة العناصر الثقافية لوسطها الأصلي، بل إستراتيجية في الترجمة تسعى لتعزيز وتجسيد الانتماء الثقافي واللغوي المزدوج في النص الفرنكوفوني اللذين يدخلان ضمن المعايير الشعرية والجمالية لهذه النصوص والتي لا بد من احترامها خلال عملية الترجمة.

خاتمـــة

يعد أمين معلوف من الكتاب الفرنكوفونيين الذين لا يعتبرون الكتابة بلغة الآخر "مأساة" وتخليا عن اللغة الأم بل فضاء تتحاور من خلاله اللغات والثقافات، مما يجعله ينتج روايات تتسم بهجنة ثقافية ولغوية وهو ما يميز

الروايات الفرنكوفونية ما بعد الكولونيالية. فالكتاب الفرنكوفونيون لما بعد الكولونيالية اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية التي يعتبرونها عنصرا من العناصر التي تكون هوياتهم الثقافية، واستحوذ هؤلاء الأدباء عليها حيث منحوها ألوانا ثقافية متنوعة ومختلفة عن الثقافة الفرنسية، وهذا ما يجعل كتاباهم تتميز بالهجنة والتمازج اللذين يعتبرهما الكتاب اليوم ضربا من ضروب التحاور اللغوي والثقافي.

إن ترجمة الرواية الفرنكوفونية إلى اللغة العربية عملية خاصة جيدا، فهي لا تتم حسب الطريقة المعتادة "الكلاسيكية" التي يتم بموجبها تمرير نص أجنبي لغويا وثقافيا إلى اللغة العربية، بل هي عملية تتم على مستويين: المستوى الأول يقوم فيه المترجم بإرجاع "المألوف"من محتوى وعناصر ثقافية إلى وسطها الأصلي وهي رحلة الرجوع إلى الأصل؛ أما المستوى الثاني فهو المستوى الذي يقوم من خلاله المترجم بإقحام "الغريب" "الجديد" في اللغة العربية وذلك بترجمة وتمرير الجانب الجمالي والأدبي والإبداعي للكاتب الفرنكوفوني في اللغة الفرنسية، فالقارئ العربي سيتعرف من خلال الترجمة العربية على الكاتب ليس "كابن البلد" فقط بل ككاتب أدبي مبدع، وهذا ما يجعل الترجمة العربية، إلى جانب كونها رحلة العودة إلى الأصل، هجرة ثانية للنص الفرنكوفوني كنص أدبي.

الهوامش:

1- Ben Jalloun (Tahar), On ne parle pas le francophone, site web: www.taharbenjelloun.org consulté le: 16/01/2016. Ce texte est paru dans «Le Monde Diplomatique» du mois de Mai 2007.

2- Memmi (Albert), Emergence d'une littérature maghrébine d'expression française: la génération de 1954, Etudes littéraires, p 18. Site web: https://www.erudit.org/en/journals/etudlitt/2001-v33-n3-etudlitt2270/501303ar.pdf. Consulté le: 03/04/2018.

3- Moura (Jean-Marc), Littératures francophones et théorie postcoloniale, Presse Universitaire de France, 1999, pp 13/14.

4- المرجع نفسه، ص 7.

5- Grutman (Rainier), Des langues qui résonnent. L'hétérolinguisme au XIXe siècle québécois, Québec, Fides, 1997, p 37. In: Suchet (Myriam), Textes hétérolingues et textes traduits, de la «langue» aux figures d'énonciation. Pour une littérature comparée différentielle, p 5. Thèse de doctorat sue le site: https://spectrum.library.concordia.ca/7445/1/Suchet-PhD-S2011.pdf.

6- انظر: Moura (Jean-Marc)، مرجع سابق، ص 89.

7- إن فكرتي "الرجوع إلى الأصل" و"الهجرة" نجدهما عند الباحثة والمترجمة نهلة بيضون في أطروحة الدكتوراه التي ناقشتها في السربون سنة 2005، وجاء عنوان الأطروحة كما يلي:

Baydoun (Nahla), Réflexion sur la traduction arabe de l'œuvre romanesque d'Amin Maalouf, écrivain libanais d'expression française: migration ou rapatriement de l'œuvre littéraire, thèse de doctorat, Université Paris III –Sorbonne Nouvelle- UFR Orient et Monde Arabe. Discipline: langues et civilisations orientales. 2005.

8- Maalouf (Amin), Le rocher de Tanios, Editions Grasset et Flasquelle, 1993.

9- Berman (Antoine), L'épreuve de l'étranger, Editions Gallimard, 1984.

10- انظر: بيضون نهلة، مرجع سابق، ص 216.

11- انظر: Maalouf (Amin)، مرجع سابق، ص 29.

12- معلوف أمين، صخرة طانيوس، ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي- ANEP، 2001، ص 31.

13- انظر: Maalouf (Amin)، مرجع سابق، ص ص 93/92.

14- المرجع نفسه، ص 253.

15- معلوف أمين، صخرة طانيوس، ترجمة: نهلة بيضون، ص 267.

قائمة المراجع:

المصدر:

MAALOUF Amin, Le rocher de Tanios, Editions Grasset &Flasquelle, 1993.

معلوف أمين، صخرة طانيوس، ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي- ANEP، 2001.

باللغة العربية:

- دوجلاس روبنسون،2005، الترجمة والإمبراطورية نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة.
- رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات باجي مختار –عنابة.
- زينب صالح الطحان، 2013، الأدب اللبناني باللغة الفرنسية وأزمة الهوية الوطنية، دار العودة، الطبعة الأولى، بيروت.
- د. عبد الله ركيبي،2009، الفرنكوفونية مشرقا ومغربا، دار الكتاب العربي.
- غينتسلر إدوين،2007، في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة، ترجمة: د. سعد عبد العزيز مصلوح، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت.

باللغة الفرنسية:

- AKINWANDE, Pierre, Négritude et francophonie Paradoxes culturels et politiques, l'Harmattan, 2011.
- ARNAUD, Jacqueline, La littérature maghrébine de langue française I/ Origines et perspectives, Published, 1986.
- CLAVARON, Yves, Poétique du roman postcolonial, Publication de l'Université de Saint-Etienne, 2011.
- DEJEUX, Jean,

* La littérature maghrébine d'expression française, Presse universitaire de France, 1992.
* Situation de la littérature maghrébine de langue française, Office des Publications Universitaires. Alger, 1982.

- FRAISSE, Emmanuel, Littérature et mondialisation, Editions Champion. Paris, 2012.
- Littératures francophones du monde arabe, sous la direction de Jean Louis Joubert, Editions Nathan. Paris, 1994.
- MAALOUF, Amin, Les identités meurtrières, Editions Grasset et Fasquelle, 1998.

-MOURA Jean-Marc, Littératures francophones et théorie postcoloniale, Presse Universitaire de France, 1999.

- SAID, Edward W:

* L'orientalisme l'Orient créé par l'Occident, Editions du Seuil, 1980.
* Culture et impérialisme, APIC dissonances. Alger, 2010.

-SULTAN Patrick, La scène littéraire postcoloniale, Editions Le Manuscrit, 2011.

-VIATTE, Auguste, Histoire comparée des littératures francophones, Editions Fernand Nathan, 1980.

أطروحات الدكتوراه والمقالات:

- BAYDOUN Nahla, Réflexion sur la traduction arabe de l'œuvre romanesque d'Amin Maalouf, écrivain libanais d'expression française: migration ou rapatriement de l'œuvre littéraire, thèse de doctorat, Université Paris III –Sorbonne Nouvelle- UFR Orient et Monde Arabe. Discipline: langues et civilisations orientales. 2005.
- BEN JELLOUN Tahar, On ne parle pas le francophone, www.taharbenjelloun.org.
- MEMMI Albert, Emergence d'une littérature maghrébine d'expression française: la génération de 1954, Etudes littéraires. Cite web: https://www.erudit.org/en/journals/etudlitt/2001-v33-n3-etudlitt2270/501303ar.pdf.Consulté le: 03/04/2018.
- SUCHET Myriam, Textes hétérolingues et textes traduits, de la «langue» aux figures d'énonciation Pour une littérature comparée différentielle. Thèse de doctorat sue le site: https://spectrum.library.concordia.ca/7445/1/Suchet-PhD-S2011.pdf.